أم مارية الأثرية
د. آلاء ممدوح محمود
ليدبروا آياته

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)}

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

ثم جاءت الآيات للرد على الذين يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، ونهت المؤمنين أن يسلكوا طريقهم، فأمرتهم أن يأكلوا من رزق الله، وهنا لم يقل "حلالا "لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وأمرتهم أن يشكروا ربهم على نعائمه إن كانوا مقرين له وحده بالخلق والأمر فلايجعلوا له أندادًا في التحليل والتحريم.

هداية .... وتدبر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ	توجيه الإنسان إلى العمل والكسب والسعي وطلب الرزق من الله، ولايتواكل ويظن أن رزقه سيأتيه بدون كسب وعمل.
	سعة رحمة الله -تبارك وتعالى- بعباده، من جهتين: من جهة أنه أمرهم بالأكل من الطيبات، ووسع عليهم، ومن ناحية أخرى لكونه هو الذي رزقهم فيشعر الإنسان بالطمأنينة "علمت أن رزقي لن يأخذه غيري فاطمأن قلبي"، ولكن الله حكيم يرزق بقدر بحسب حكمته وعلمه {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ} [سورة الشورى:27] فهناك من العباد من يناسبه الفقر ولو أغناه الله لفسد حاله، ومنهم من يناسبه الغنى ولو أفقره الله لفسد حاله، فالله خلقنا وهدانا إلى ما يصلحنا.

	الله سبحانه تكفل برزق صغار المخلوقات كالنمل والحشرات فكيف بكبارها؟! ولكن قلة وضعف اليقين عند الناس، يجعل الانسان يسرع إلى الحرام، ويحتال على حدود الله -تبارك وتعالى- وشرعه.
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ	الشكر بعد ذكر النعم، لأن الشكر هو قيد النعم الموجودة، تحفظ به، وبه تجلب النعم المفقودة، ويكون في كل نعمة بحسبها، فالمال بالبذل، والجاه بالشفاعة، والعلم بتعليم الناس، فإذا كفرت وجحدت بالنعم نفرت وذهبت {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا }[سورة الإسراء:27] ومن صور الكفر: صرفها في معصية الله والتبذير والإسراف، والله -تبارك وتعالى- يقول :وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا]سورة الإسراء:29.[ومن الأمثلة على ذلك ذكر المقريزي المؤرخ أن المعتمد آخر ملوك بني العباد في الأندلس كان متزوجاً من جارية اسمها (اعتماد) وكان يحبها حباً جما ويعاملها برفق ولين ويحرص على ارضائها وتلبية جميع رغباتها .وذات يوم أطلت من شرفة القصر فرأت القرويات يمشين في الطين فاشتهت أن تمشي هي أيضاً في الطين .وحدثت زوجها بذلك فخاف على قدميها أن يمسها الطين ... فألحت عليه فأمر الملك أن يؤتى بالمسك والعنبر وأنواع الطيب المختلفه فطحنت وصبت في صالة القصر، ثم أمر أن يأتوا بماء الورد ويصبوه على الطيب ...وعجنوه بالأيدي حتى اصبحت كالطين. وعندئذ جاءت اعتماد مع جواريها تتهادى بينهن فخاضت بقدميها في هذا الطين الذي بلغت أثمانه آلاف الدنانير، وحققت رغبتها ومشت في الطين. وبعد ذلك زال ملكه ثم آل أمره إلى الحبس، وضجرت منه زوجته، وقالت له: ما رأيت منك خيرًا قط، قال: ولا يوم الطين؟ وفي أول يوم عيد بسجنه بأغمات، بالمغرب، أفطر على تمرات وقد دخل عليه بنيه وبناته عليهن أطمار وأقدامهن حافية، فالله المستعان .. وعليه التكلان
	الشكر يتضمن شرطي قبول العمل: الإخلاص، فلايكون

	الشكر إلا لله، وكذلك شكر الله على نعمه وفضله هو من ادلة إخلاص العبودية لله وحده لاشريك له، الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور وحبّه له واعترافه بنعمته وثناؤه عليه بها وأن لايستعملها فيما يكره.

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)}.

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

لما كان اليهود والمشركون قد حرموا انفسهم ما أحل الله لهم فإن الله قد بين للمسلمين فساد مسلكهم وفصل لهم ما حرم فلم يحرم ربنا الا الميتة من غير ذبح شرعي واستثنى الشارع ميتة السمك والجراد، والدم السائل المسفوح واستثنى منه الكبد والطحال، ولحم الخنزير وما رفع الصوت عند ذبحه لغير الله وهذا على الغالب، ويعم كل ذبح لغير الله ولو بغير رفع الصوت.

وهذا الحصر في الآية ليس على بابه، فهناك أمور أخرى حرمها الله في كتابه وجاءت على لسان رسوله كما قال تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ [سورة المائدة:3]، وقد نهى النبي عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير".

ومع هذا {فَمَنِ اضْطُرَّ} أي: ألجئ إلى المحرم، سواء كان لجوع أو لحاجة أو إكراه، {غَيْرَ بَاغٍ} أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، {وَلَا عَادٍ} أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له، فلايأكل فوق حاجته، {فَلَا إِثْمَ} أي: لاجناح عليه، وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}: فيغفر للعبد ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصا وقد غلبته الضرورة، ورحيم سبحانه بعباده فقد جعل لهم مخرجًا.

هداية .... وتدبر

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ	**التحليل والتحريم لله وحده.** سواء كان في كتابه، أو على لسان رسوله كما قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [سورة الشورى:21] إذًا لايجوز أن يكون النص واضح بحرمة الأغاني والموسيقى ونقول: الشيخ فلان أباحها، أو يكون الأمر جلي بحرمة الربا ونقول العالم فلان قال بحلها، أو المسألة خلافية.
	اعجاز ... علمي. من رحمة الله بنا أن حرم علينا هذه الخبائث فالميته مليئة ببكتريا التعفن التي تسبب التسمم الغذائي والجمرة الخبيثة والتهاب الكبد الوبائي. والدم يتضمن سموم وفضلات ضارة، فإحدى وظائفه هي نقل السموم والفضلات من الأمعاء إلى الكبد لتعديلها. والخنزير حيوان قذر ثبت علميًا أنه ينقل للإنسان 27 مرض وبائي كالدودة الشريطية، والصداع وآلام المفاصل والعمود الفقري. شيخ الإسلام ابن تيمية يقول أن العلة من تحريم الدم أنه مجمع الشهوة والغضب وأنه كما قال النبي: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم". والحق أن هذه علة مستنبطة واجتهادًا منه رحمه الله، ويضاف عليها علل سابقة كالضرر، ونحن نتعبد لله بالإنتهاء عن النواهي سواء علمنا الحكمة والعلة أو لم نعلمها، لكننا على يقين أن الله حكيم وكل أفعاله لحكمة.
فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ	ليس معنى كون هذه الشريعة يسيرة أن الإنسان يفعل ما حرم الله، وينتهك حدوده، ويجترئ على ربه -تبارك وتعالى- ويفعل ما يحلو له، ويضيع الواجبات، ويقول: الدين يسر! وحال الإنسان في الضرورة ينبغي أن تقدر بقدرها، فإذا

كان مثلاً يجوز كشف العورة للعلاج ونحو ذلك، فإن ذلك ليس معناه أن يكشف كل شيء، وإنما يُكشف موضع الحاجة فقط، فالمرأة إذا احتاجت أن تتطبب عند الطبيب لشيء مثلاً في بعض وجهها، أو بعينها فإنها تكشف هذا الموضع فقط، والأصل طبيبة، فإن لم يوجد فطبيب. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: من استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى : {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ} فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم، ولم يكن سببه معصية، وهي ترك واجب، أو فعل محرم، لم يحرم عليهم؛ لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عادٍ	
الشريعة مبينة على الرحمة، وليست مبنية على التعسير والشدة والتضييق على الناس وإنما حرم على الناس الأشياء التي تضرهم، وهو رحيم بهم، فإذا اضطروا فتح لهم هذا المحرم، فيأخذون بقدر ضرورتهم. فليس معنى التمسك بالدين الوقوع في العنت والشقاء والتعب كما يظن البعض، بل إن الدين يسر وكما قال النبي: " إنَّ هذا الدينَ يسرٌ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبهُ، فسدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا ويسِّروا واستعينُوا بالغَدوةِ والروحةِ وشيءٍ من الدُّلجةِ"	**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**
قدم الغفور على الرحيم لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والتخلية قبل التحلية، فالمغفرة تخلية من الذنوب فلاينااله من ذلك عقوبة فيسلم، والرحمة تحلية بالأجر والجنة ورفعة الدرجات فينال بذلك الغنيمة. لأن حُلل الرحمة الطاهرة تُكسى للمتطهر من أدران وأوساخ الذنوب.	

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

وما زال الكلام موصولا عن بني إسرائيل فقد بينت الآيات الحلال والحرام في الأطعمة ثم بينت هنا حكم كتمان الحق لعرض زائل من الدنيا، وهو الطعام المعنوي وهو الرشوة التي يأكلها علماء بني إسرائيل. ثم ذكرت جزاءهم أنهم ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوصلهم إلى النار والجزاء من جنس العمل فكما أنهم كتموا الحق ليأكلوا به ثمنًا قليلًا جازاهم الله بأن يأكلوا في بطونهم النار كما قال النبي: "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به"، ولايكلمهم الله كلام محبة وتكريم بل سخط عليهم فإن الله يقول لأهل النار: {اخسئوا فيها ولاتكلمون}، ولايطهرهم بالمغفرة والثناء الجميل كما يكون للمؤمنين، ولهم عذاب اليم.

وكل ما استحقوه بظلمهم وبما كسبت أيديهم وما ظلمهم الله فهؤلاء اشتروا الدنيا بالآخرة، فترتب على ذلك انهم اشتروا العذاب بالمغفرة فيالطول صبرهم على النار، وهذا تعجيب وتخويف للمؤمنين من حالهم، فكيف يصبرون على هذا العذاب المؤلم؟!، وما ظلمهم الله ولكنهم استحقوا ذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم، لأن الله أنزل الكتب على الرسل بالحق البين الواضح والهداية، وأن الذين أوتوا الكتاب اختلفوا فيه فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعض، فهم في شقاق ومحادة وافتراق بعيد عن الحق.

هداية .... وتدبر

إِنَّ الَّذِينَ	كل ما في الحياة من أعراضها الزائلة قليل، لانقطاع مدته،

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا	وسوء عاقبته، قال تعالى { مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} فالذي كان يقتات بدينه أين مكاسبه التي حصلها؟ ذهبت، قد يكون أُعطي جملاً، أو فرسًا، أو حمارًا، أو شاة، أو دراهم، أين هو؟ وأين دراهمه؟ في القرون الماضية وقبل مئات السنين عبر الأجيال.
	وجوب نشر العلم وبثه ويتأكد ذلك إذا دعت الحاجة إليه، والله -تبارك وتعالى- يسأل كل إنسان بما أعطاه ويحاسبه، فالذي أعطاه العلم سيحاسبه على هذا العلم، هل عمل به، وهل طلبه من أجل الله، وهل نشره للناس وبينه ؟!. ويستثني من ذلك اذا كان بعض العلم يتضمن فتن، أو لاتفهمه عقول الناس فلايجوز نشره كما قال عبد الله بن مسعود {ما أنت بمحدث قومًا حديثًا، لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة}، وقال علي: {حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله}، فما كل ما يعلم يقال، وإنما ينبغي أن يكون العالم حكيمًا يتكلم مع كل قوم بما يصلح لمثلهم، وينتفعون به، وكذلك على الناس ألا ينشروا كل شيء بل لابد من التثبت هل هو صحيح أو ضعيف، وهل يأتي بالمصلحة أو بالمفسدة؟!.
أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ	ذِكْر البطون يدل على شره هؤلاء وجشعهم، وأنهم عبيد لهذه البطون، فحينما يبيع الإنسان آخرته من أجل دنيا غيره، أو حينما يفعل ذلك ليتزين ويتجمل لأهل الدنيا، فهذا أسوأ المراتب، فلا يصح بحال من الأحوال، ولا يليق بالعاقل أن يضر بآخرته من أجل دنياه فضلا عن دنيا غيره، فيعين الناس بقدر المستطاع لكن لايكون على حساب آخرته ودينه. فلايقول: هذا ضعيف أو مسكين فيشهد له شهادة زور.
	(لا يكلمهم الله يوم القيامة) لأن كلامه قد كان بين أيديهم في الدنيا فلم يلتفتوا إليه، أإذا وقفوا بين يديه يشرفهم بسماع كلامه؟!.
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى	أولئك إشارة للبعيد، لبعد هؤلاء من الرحمة، ومن كل فضيلة، فهم بعداء عن الخير وعن ألطاف الله وأن هؤلاء لا يميزون بين النافع والضار، وإلا فمن الذي يَقبل ويُقبل على الضلالة في سبيل ترك الهدى؟ هذا لا يفعله إلا

وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ	الجاهل؛ حيث إنه يؤذي نفسه بذلك ويضرها ويودي بها إلى سوء العاقبة. ولكن هؤلاء لما كانت عقولهم معيشية يبحثون عن هذا المعاش، وعن هذه المكاسب المتقضية العاجلة أصبحت أنظارهم لا تجاوز آنافهم، فهم لا ينظرون بنظر بعيد وإنما ينظرون بالنظر القريب، الطمع والكسب والتحصيل المادي أيًّا كانت عواقب ذلك فهم لا يلتفتون إليها؛ كذلك الذي يغلبه الطمع على تحصيل أمر من الأمور فيندفع إليه، وتكون عاقبته بعده الهلاك والعطب.
	لابد أن يتقي الإنسان ربه في أحواله كلها، في علانيته وسره، وأن يخاف، وإذا هم بالمعصية تذكر نظر الله إليه، وسرعة أخذه، فيكون ذلك زاجرًا له من هذه المعصية. وينبغي للإنسان العاصي أن ينظر لحاله وصبره على النار، فلو طلب من الإنسان أن يقف على جمرة، أو أن يقبض جمرة بكفه؛ فإنه لا يستطيع، ولا يطيق، فإذا أراد أن يعصي الله فعليه أن يرى في نفسه هذا العجز والضعف، فيكون ذلك زاجرًا له عن مساخط الله؛ لأن هذه المساخط وهذه الآثام، وهذه الموبقات هي نار يحترق بها، وقد كان الأحنف بن قيس -رحمه الله- يضع أصبعه على النار، ويقول: حس ما حملك على أن فعلت في يوم كذا، كذا وكذا؟
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ	يدل على سوء عاقبة الاختلاف، وأن الاختلاف ليس برحمة، وإنما هو شر، كما قال ابن مسعود، أما ما جاء عن التابعي القاسم بن محمد قال: "اختلاف الصحابة رحمة" ، فالمراد به كما ذكر الإمام الشاطبي: أنهم لو لم يجتهدوا فيختلفوا لضاق الأمر على من بعدهم من العلماء المجتهدين، إذا وقع منهم الاجتهاد والخطأ والاختلاف، فإن ذلك مما يقع به الحرج على هؤلاء حيث اختلفوا وأخطأوا في اجتهادهم لكن لما اجتهد أصحاب النبي فاختلفوا وأخطأ بعضهم، وأصاب بعضهم، كان ذلك توسعة للمجتهدين بعدهم يجتهدون ويصيبون ويخطئون، ويختلفون، ولكن هذا الاختلاف لا يؤدي إلى التدابر والتقاطع،